تاريخ الغناء العربي

(٦) طويس

كانت الحلقة الخامسة من سلسلة « تاريخ الغناء العربي » خاتمة العصر الأموي وقبل البدء في تاريخ الغناء في العصر العباسي رأيت أن أترجم لأشهر المغنين الذين نبغوا فيهوا في عهد الأمويين ورأسهم طويس رغبة مما سلفت وعزيمة صحت فصدقت

﴿مولده ونشأته﴾ ولد طويس يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول في السنة العاشرة الهجرية الموافقة سنة ٦٣٢ ميلادية . حدّث طويس عن نفسه قال : إنّ أمّي كانت تمشي بين نساء الأنصار بالنائم ثم ولدتني في الليلة التي مات فيها رسول الله وفطمتني في اليوم الذي مات فيه أبو بكر وبلغت الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر وتزوجت في اليوم الذي قتل فيه عثمان وولد لي في اليوم الذي قتل فيه عليّ فمن مثلي ؟ ! ! ولذلك ضربت العرب المثل به في الشؤم فقالت أشأم من طويس

والطاوس طائر معروف حسن المنظر وجماله في ريشه البهيج ذي الألوان الكثيرة البديعة وهو يختال بذنابه الطويل الحسن رواؤه . ويضرب بالطاوس المثل في الخيلاء وطويس مصغّر طاوس بعد حذف الزيادات تصغير ترخيم وكان المغني قد لقب طاوساً بعد ولادته ولبث لقبه كذلك حتى كان يافعاً فلما تخنث لقّب طويساً تمايحاً واسمه عيسى بن عبدالله الذائب مولى بني مخزوم القرشيين وكان يكنى أبا عبد المنعم وهو أول من غنّى في الإسلام بالمدينة ونقر بالدّف المربع . وكان قد أخذ طرائق الغناء عن سبي فارس وذلك أن عمر رضي الله عنه كان صيّر لهم في كل شهر يومين يستريحون فيهما من المهن فكان طويس يتشاهم حتى فهم طرائقهم . وكان خليعاً يضحك كل ثكلى فمن مجانته أنه كان يقول يأهل المدينة ما دمت بين أظهركم فتوقعوا خروج الدجّال والدّابّة وإن مُتُّ فأنتم آمنون . وكان يظهر للناس ما فيه من الآفة غير مكترث بها ويتحدث بها . ولا غرو إذا ضربت العرب به المثل في ذلك فقالت أخنث من طويس . وكان طويلا أحول مضطرب الخلق !! ولما خصي مع سائر المخنثين في المدينة المنورة قال ما هذا الأخنان أعيد علينا وكان ذلك في عهد سليمان بن عبد الملك وكان والي المدينة من قبله ابن حزم وهو الذي أطاع أمره بخصائهم لمّا أفسدوا النساء على الرجال !! والرجال على النساء . روى أن جارية

لسليمان بن عبدالملك تدعى الدلفاء حضرته ذات ليلة بدريّة في معسكره وعليها حلى ومعصفر فسمع في الليل صفيره وغديه ومغنيه سنان يقول

وغادة صمت صوتي فأرقها ... من آخر الليل لما ملّها السحر[1]
تدنو على نخذيها من معصفرة ... والحلي دان على لبّاتها خضر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق ... فدمعها بأعالي الخد ينحدر
في ليلة البدر ما يدري معاينها ... أوجهها عنده أبهى أم القمر
لو خليت لمشت نحوي على قدم ... تكاد من رقة المشي تنفطر

فسمعت الدلفاء صوت سنان فخرجت إلى وسط الفسطاط (الخيمة) تستمع فجعلت لا تسمع شيئاً من خلق ولطافة قدّ إلا الذي وافق المغنى ومن نعت الليل واستماع الصوت الا رأت ذلك كله في نفسها فحرّك ذلك ساكناً في قلبها فهملت عيناها وعلا نشيجها فانتبه سليمان من نومه فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال فقال لها ما هذا يا دلفاء فقالت:

ألا ربّ صوت رائع من مشوّه ... قبيح المحيّا واضع الأب والجدّ
يروعك منه صوته ولعلّه ... إلى أمة يعزى مما وإلى عبد

فقال سليمان دعيني من هذا فوالله لقد خامر قلبك ما خامر. يا غلام علي بسنان فلما أتى به قال يا سنان ألم أنهك عن مثل هذا قال يا أمير المؤمنين حملني الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغذيّ نعمته فإن رأى أمير المؤمنين ألاّ يضيع حظه من عبده فليفعل. فدعا حجّاماً ليخصيه فدخل إليه عمر ابن عبد العزيز وكلمه في أمره فقال اسكت ثم خصاه خشية الفتنة ودعا كاتبه فأمر أن يكتب من ساعته إلى عامله ابن حزم بالمدينة لما علم أن الغناء قد فشا فيها بإلّا تدع المخنثين «أن احص المخنثين المغنين» فتشظى قلم الكاتب فوقعت نقطة على ذروة الحاء فكان ما كان مما تقدم ذكره. وكان سليمان يريد من احصائهم خصيهم كما فعل بسنان صفيره. وقد وهم الميداني إذ نسب الأبيات الفائتة إلى رجل يدعى صفيرا وفي الروايات اضطراب وقد أتينا على الخلاصة مع التحري وتمام السّوق

﴿منزلته في الغناء﴾ طويس أول من غنى في الإسلام الغناء الفنّي الرقيق نقلاً عن الفرس — وأول من صنع الرمل والمخرّج في الإسلام وأجاد فيه حتى ضرب به المثل فقيل أهزج من طويس. وأول صوت غنى به (وكان في عهد عثمان بن عفان)

قد براني الشوق حتى ... كدت من شوقي أذوب

وقد تخرّج عليه في الغناء كثير من تلاميذه المغنين اشهرهم ابن سُرَيج والدلال

(١) رواية الشعر للبغدادي وقد رواه ابن عبد ربه والجاحظ بتغيير قليل في كلماته مع اطالة في القصة قال شلت فارجع الى العقد الفريد والحماسي والاضداد وقوله خضر أي بارد وهذه حالة مشاهدة عند العرب وفي الاصل خضر بالضاد وهو تحريف من النسخ او الطبع فتأمل

ونؤومة الضحى فأخذوا طرائق تلحينهم من طويس ثم أبدعوا فيها أيما إبداع

واجود صوت غناه ولحنه من خفيف الرمل قول ابن قيس الرقيات

يا لقومي قد أرقني الهموم فؤادي تنا يجنّ سقيم
أندبَ الحبُّ في فؤادي فتيه لو تراءى للناظرين كلوم (١)

وقد كانت لطويس منزلة عالية لدى الأمراء من الأمويين والهاشميين خدمته الغناء وإتقانه الصنعة وحسن صوته وإجادة تلحينه ولسموه في اختيار الشعر الذي يتغنى به. يدلك على ذلك أنه لما ولي أبان بن عثمان بن عفان المدينة المنورة من قبل معاوية بن ابي سفيان قعد في مجلس عظيم واصطف له الناس فجاء طويس المغني وقد خضب يديه دماً!! واشتمل على دفّ له وعليه ملاءة مصقولة!! فسلّم ثم قال بأبي وأمي يا أبان الحمد لله الذي أراني أميراً على المدينة إني نذرت لله فيك نذرا إن رأيتك أن أخضب يدي دماً!! واشتمل على دفي وآتي مجلس إمارتك وأغنيك صوتاً فقال يا طويس ليس هذا موضع ذاك قال بأبي أنت وأمي يا بن الطيب أبجني قال هات يا طويس فحسر عن ذراعيه وألقى عن ردائه ومشى بين الساطين وغنى: بقول الملك ذي جدن الحيري

ما بال أهلك يا رباب خزرا كأنهم غضاب

فصفق أبان بيديه ثم قام عن مجلسه فاحتضنه وقبّل بين عينيه

وحدث المدائني قال كان (الأمير الهاشمي) عبد الله بن جعفر معه إخوان له في عشية من عشايا الربيع فراحت عليهم السماء بمطر جون فأسال كل شيء فقال عبدالله هل لكم في العقيق وهو متنزه أهل المدينة في أيام الربيع والمطر فركبوا دوابهم ثم انتهوا اليه فوقفوا على شاطئه وهو يرمى بالزبد مثل مدّ الفرات فإنهم ينظرون إذ هاجت السماء فقال عبدالله لأصحابه ليس منا جنة نستجنّ بها وهذه سماء خليقة أن تبل ثيابنا فهل لكم في منزل طويس فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدثنا ويضحكنا وطويس في النظارة يسمع كلام عبدالله بن جعفر فقال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جعلت فداك وما تريد من طويس عليه غضب الله مخنث شاتن لمن عرفه فقال له عبدالله لا تقل ذلك فإنه مليح خفيف لنا فيه أنس فما استوفى طويس كلامهم تعجّل إلى منزله فقال لامرأته ويحك قد جاءنا عبدالله بن جعفر سيد الناس فما عندك فقالت تذبح هذا العناق (٢) واختبز خبزاً رقاقا فبادر فذبحها وسلخت هي ثم خرج تتلقاه مقبلاً إليه فقال له طويس بأبي انت وأمي هذا المطر فهل لك في المنزل تستكن فيه إلى أن تكف السماء قال اياك أريد قال فامض يا سيدي على بركة الله وجاء

(١) الندب اثر فيه ندباً وهو أثر الجرح. والكلوم الجروح (٢) الانثى من ولد المعز منه دون سنة

يمشي بين يديه حتى نزلوا ولما غسلوا أيديهم من طعامه قال بأبي أنت وأمي أتمشى معك وأغنيك قال افعل يا طويس فأخذ ملحفة فاتزر بها وأرخى لها ذنبين ثم أخذ الدف المربع فتمشى وأنشأ يغني يا خليلي ثابتي سهدي لم تنم عيني ولم تكد

كيف تنحوني على رجل مؤنس تلتذه كبدي

مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزميلة النكد

من بني آل المغيرة لا خامل نكس ولا جحد

لفظرت عيني فلا لفظرت بعده عيني الى أحد

فطرب القوم وقالوا أحسنت يا طويس ثم قال يا سيدي أتدري لمن هذا الشعر قال لا والله ما أدري لمن هو الا أني سمعت شعراً حسناً قال هو لفارعة (وقيل لخولة) بنت ثابت أخت حسان بن ثابت وهي تعشق عمارة بن الوليد بن المغيرة [1] وتقول الشعر فيه فتكس القوم رؤوسهم وضرب عبد الرحمن بن ثابت برأسه فلو شقت الأرض له لدخل فيها خالداً

وكان طويس مولعاً بالغناء بالشعر الذي قالته العرب من الأوس والخزرج سكان المدينة في حروبهم متضادين يريد بذلك إثارة العداوة والبغضاء بين القبيلتين في الاسلام كما كانتا في الجاهلية فقل مجلس اجتمع فيه هذان الحيان فغنى فيه طويس الا وقع فيه شر فنهى عن ذلك فقال والله لاتركت الغناء بشعر الأنصار حتى يوسدوني التراب [2]

وغنى طويس بحضرة جميلة المغنية الشهيرة في وهط من المغنين فاستحسنته قال :

قد طال ليلي وعاد لي طربي من حب خود كريمة الحسب

غراء مثل الهلال آنسة أو مثل تمثال صورة الذهب

صادت فؤادي بجيد مغزلة ترعى رياضا ملتفة العشب

وغنى طويس بأبيات عاتكة بنت زيد التي ورثت بها الفاروق وكان زوجها ومات عنها — قالت

مُنع الرقاد فعاد عينيَ عوّد عما تضمّن قلبي المعمود

يا ليلة حسبت على نجومها فسهرتها والشاشون هجود

قد كان يسهرني حذارك مرة فاليوم حق لعيني التسهيد

أبكي أمير المؤمنين ودونه للزائرين صفائح وصعيد

﴿ موته ﴾ مات طويس في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حوالي سنة مائة هجرية على أصح الروايات وعمره زهاء تسعين سنة ودفن في المدينة المنورة رحمة الله عليه

عبد الرحيم محمود مدرس في السعيدية الثانوية

(١) الاغاني ج٢ ص ١٧٠ طبعة الساسي (٢) وقيل عبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومي